الدّيانة الهندوسيّة (النظام الطبقي وأثره في ظهور المذاهب الدينية)

أ.محمّد عبدالسلام دعباج ـ كلية الشرعية ـ مسلاتة ـ الجامعة الأسمرية .

المقدمـــــــــــــة :

الحمدُ لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين نبيينا محمد ـ صلى الله عليه وآلة وصحبه اجمعين- .

تُعتبر الديانة الهندوسية واحـــدة من أقـدم الديانة الوضعية في العالم ، إن لم تكن أقدمها ، وهي تمثّل ثالث ديانة في العالم من حيث عدد مُعتنقيها ، بعد المسيحيّة والإسلام، كما أنها تمثّل نِتاجٍ فكري متراكم عن العصور التي سبقتها ، لذا لم يعرف لها مؤسس معين ، وكان أساسها الفكر الديني للسكان الأصليين والمهاجرين ؛ كما أنها سمّيت بأسماء عديدة ، تبعاً للمراحل التاريخية التي مرّت بها، إلى أن استقرّت في النهاية على تسميتها بـــ : (الهندوسية). (HINDUISM) ، وللهندوســية كتب مقدّسة، تنظّم شؤون حياتة اتباعها ســواء أكانت الدينية أو الثقافية أو الاجتماعية ، وتمثّل مرجعاً مهماً لشؤونهم الحياتيّة ، ومنها كتاب : (منوسمرتي)، الذي يُعدّ المصدر الأساس للتشريع في الديانة الهندوسيّة ؛ ويحتوي نظاما دينياً متكاملاً ، لذا نجد الهندوسية زاخـــرة بالعديد من العقائد والشعائر الدينية ، إذ اعتقدوا بعدد من الآلهة وهم الإله (براهما، فيشنو، شيفا)، كما أنّ لهم عقائد أساسية ، منها عقيدة (التناسخ والجزاء (الكارما) والانطلاق ووحدة الوجود) ، ومارسوا العديد من الشعائر والعبادات منها الصـــلاة والصوم والحج ، لتلبية أغلب احتياجات المتعبد الهندوسي الدينية والروحية.

تتميّز الهندوسية بالشمولية، أي : أنّها غطّت كلّ جوانب الحياة، من اجتماع واقتصاد وسياسة وأدب، ممّا ساهم في استمرارها وبقائها إلى وقتنا الحاضر، ولقد تركت بذلك تأثيراً كبيراً في جميع جوانب الحياة الهندية، ومنها الجانب الاجتماعي الذي كان له الأثر الكبير في ظهور نظام الطبقات الدّيني، كما أنه كان أحد دعائم بقاء الهندوسية، ونتيجة للتقسيم العنصري الذي قسّم المجتمع آنذاك وأدّى هذا النظام الطبقي، إلى ظهور حركات إصلاحية داخل الهندوسية ، منها البوذيّة، والجينيّة، والسيخيّة.

وكما إنّ دراسة النظام الطبقي الهندوسي له أهمية كبيرة فـــي الكثير من الجوانب ومنها:

1- الجانب الدينـــي : يزود الباحث في علم الأديان بالمعلومات الخاصة بطبقة الكهنة (البراهمة) من حيث واجباتهم ووظائفهم.

2ـ الجانب الاجتماعيّ : يزوّد الباحث في علم الاجتماع بمعلومات تفيده بمعرفة الجذور التأريخية لنظام الطبقات.

3ـ الجانب السياسيّ: يتمكن الباحث من معرفة الوضع السياسي من خلال دراسته نظام الطبقات، وبالأخص طبقة الملوك (الكاشتريا).

4ـ الجانب الاقتصاديّ: يزود الباحث بكثير من المعلومات عن الوضع الاقتصادي للهند القديمة من خلال دراسة طبقة (الويش) التي خصها النظام الطبقي بالشؤون الاقتصادية.

إنّ قلّة الدراسات في الجامعات الليبية، فيما يخصّ النظام الطبقي الهندوسي؛ دفعتنا لدراسة هذا الموضوع ، عسى أن تفتح الباب أمام دراسات أخرى تختصّ بدراسة الواقع الاجتماعي للمجتمع الهندي القديم.

واعتمدتُ في هذا البحث على مجموعة من المصادر العربية والمترجمة ، والكتب المقدسة الهندوسية، إذ اعتمد البحث على كتاب (الهند القديمة)، لمؤلفه محمد إسماعيل الندوي، الصادر في (القاهرة، عام 2000م)، وقد تميّز بوفرة المعلومات فيما يخص الهند القديمة ونظام الطبقات ، و أمّا المصادر المعربة ، فقد اعتمد البحث على كتاب (قصة الحضارة)، لمؤلفه- ول ديورانت، وتميز بأصالة معلوماته فيما يخص الديانة الهندوسية ونظام الطبقات، كما اعتمد البحث مصادر مقدّسة، وهي الكتب الهندوسية المقدسة، منها كتاب (منوسمرتي)، كتاب الهندوس المقدّس، الذي عربه وقدم بعض الشروحات المهمة عليه إحسان حقّي الصادر في بيروت، إذ اعتمد عليه البحث اعتماداً كبيراً في موضوع أثر الديانة الهندوسية. ، و أمّا المصادر الانجليزية، فقد اعتمد البحث على كتب عديدة اهمها، كتاب (A AHistory of India)، لمؤلّفه (Dietmar،R،H،Kulke)، الصادر في (London،2002) والذي ضمن معلومات غزيرة عن الديانة الهندوسية، والمصدر الانجليزي الآخر(All About Hinduism) لمؤلفه (Sivananda.S.Swaami)، الصادر في (India،1997)، ويعدّ - أيضاً - من المصادر المهمّة عن الدراسة.

والبحث اشتمل البحث على مبحثين ، مع مقدمة ، وخاتمة ، تناول في المبحث الأول الجذور التـاريخية لنظام الطبقات ، وفي المبحث الثاني : فتناول أثر نظام الطبقات في ظهور المذاهب الدينية الهندية التي انبثقت من الهندوسية ، نتيجة لظلم طبقة البراهمة واحتكارها لجميـــــع الامتيازات في المجتمع ، وانتهى البحث بالاستنتاجات، التي ورد فيها أهم الأفكار الأساسية التي تم تناولها في البحث ،

المبحث الأوّل ـ الهندوسيّة تسميةً وموطناً:

تُعدّ الهندوسيّة من الديانات القديمة التي يُقــدّرُ عدد أتباعها بأكثر من مليار شخص، واشتُقّت كلمة هندوسيّة من الاسم هِندُو الذي يعود لأصلٍ فارسيّ ، ولكنه لم يُستخدم لوصف هذه الديانة، بل اعتمد عليه الفُرس في وصف القبائل التي تعيش خلف نهر السند، ومن ثمّ استُخدِمَ المُصطلح في التعبير عن العادات الدينيّة للشعب الهندوسي؛ ممّا أدّى إلى تسمية ديانة الهندوس باسم الهندوسيّة، ولكن اسمها الأصلي هو "آريا دهرم" أو "ويدِك دهرم"، كما أُطلِقَ عليها اسم "الهندوكية" [1].

المطلب الأوّل ـ النظام الطبقي وأثره في ظهور المذاهب الدينية:

أولاً ـ النظام الطبقـــي Avarta : يُعدّ النظام الطبقي الشّائع في الهنــد منذ آلاف السنين ، وهو شكل من أشكال التقسيم الاجتماعي ، ويعتبر نظام شاملٌ لكلّ ما يتعلّق بالعلاقات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والدينيّة، ويصنف النّاس إلى طبقات ومراتب، والطبقة من الناس هم القوم المتشابهون ؛ يقول الرازي شارحا لمفهوم الطبقة: " النّاس طبقات ؛ أي مراتب والطبقة القوم المتشابهون"[2]. أمّا في علم الاجتماع فيُراد بها الطبقات الاجتماعيّة (social classes) ، وهي "مُختلف فئات المواطنين مع تمييزهم على أساس الثّروة أو الممتلكات أو الاقتصاد أو الدّين" [3]، ففــي بلاد الهند يتألّف المجتمع من أربــع طبقات مُتباينة، وكلّ طبقة من هذه الطّبقات الأربع تحتوي على مجموعة من الأفراد، وتقع على عاتق كلّ فرد واجبات مُعيّنة وله حقوق بعينها وفقا لمبدأ الطّبقة. غير أنّ هذه الحقوق والواجبات ليست متماثلة بين كلّ أفراد المجتمع، حيث إنّ ثمّة امتيازات ومســؤوليّات مُعيّنة تتمتّع بها طبقة دون أخرى ، وهو ما يُفضي إلــى ظهور مبدأ التفاضليّة أو التراتبيّة(Hierarchy) [4]. أمّا عن الأسباب التي أدّت إلى ظهور هذا النظام في المجتمع الهندوسي، فتنسبها بعض الأساطير إلى النّصوص المقدّسة التي لم تؤمــن بالجنس والعنصر سبباً لنشأة نظام الطبقات، فرأت أن تربطه بنصّ مقدّس، حيث بدأت فكرة الإشارة إلى التقسيم الطبقيّ الّتي قامت عليها الحياة الاجتماعيّة للهندوس في "الفيدا .(Veda) "وهذا التقسيم جاء أوّلا، نتيجة طبيعيّة لتوزيع الأعمال على النّاس في المجتمع، فقد اقتضت حياتهم أن يقوم بعض الأعضاء بالطقوس الدينيّة والاهتمام بالتعاليم والأحكام والعبادات فتقمّص "البراهمـة The) " (Brahmans مثل هذه الأدوار، بينما يقوم بعض الأفراد الآخرين بمهمّة الحروب والشّأن السياسيّ، فأُحيلت المُهمّة "للكشتريين .(The Kshatriyas) "وكان من

الطبيعيّ أن توجد جماعة تقوم بالعمل في الحقول ومطالب الحياة الأخرى كالتجارة، فكان ذلك "لبيش .(The Vaishyas) " وبالتدريج وُجدت الطّبقة الرّابعة، وهي طبقة "الشُّودر(The Shudras) "الّتي هي أقلّ الطّبقات قيمة وشأنا، والّتي عُرفت بالطّائفة المنبوذة([5]) ، وفي هذا يقول صبر المقدسي : "ولن تنتهي هذهِ الطبقات مادامت هذهِ التعليمات موجودة في الكتب المقدسة لدى الهندوس، والجهود التي تبذل في إزالة الحواجز الطبقية مصيرها في الغالب الإخفاق[6] ، أمّا الأساس الثاني الذي استند عليه نظام الطبقات فهو الحوادث التاريخية، فإن الآريين حين سيطروا على شمالي وشرقي الهند في الألف الثانية قبل الميلاد استعبدوا الأهالي وخلقوا هذه الطبقات وذلك بجعل أهالي البلاد عبيداً ومنبوذين يقومون بخدمـــة الأسياد الذين تتكون منهم الطبقات الثلاث التي تنتمي إلى الجنس الآري؛ إذ أن الآريين ، عندما دخلوا الهند كانوا يعتقدون سموا جنسهم على سواهم من الأجناس الأخرى ، فكانوا يعدون، السكان الأصليين بأنهم أقل منهم مرتبة ، فعند دخولهم الهند وجدوا سكاناً أصليين استرعت انتباههم خصائصهم العرقية ، وقد اختلفت جدًا مع طباعهم من حيث ذوي البشرة البيضاء فقد كان للسكان بشرة دكناء، مما جعل منهم هذا اللون أشخاصاً محتقرين في نظر غزاة بشرتهم ناصعة البياض، وتكلموا لغة لا يفهمها هؤلاء ، وأطلق عليهم سادتهم (الدرافيديون) ، وقد بدأت طلائع التفاوت الطبقي في أواخـــر العهد الفيدي بتناثر الحرف والصنائع وتوارثها بحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية.

والجدير بالذكر أنّ فكرة الطهارة الجسمانية والروحية التي هي محور فلسفة الطبقات قد أُخذت في الأصل من البيئة التي كان يعيش فيها الآريون الفيديون ، فقد كانت الجنة عندهم لا تقـــوم في بستان ، بل في رحاب قمم جبال الهملايا البيضاء والصافية موطن الثلوج ؛ إذ يتربع الدّيفاوات أي: أرباب الأشراف على عروشهم [7]، وكما أنّ التناقضات الاجتماعية تتصاعد وتشتد بين الغزاة من جهة وبين السكان الأصليين من جهة أخرى ، فقد كان سببا رئيسا لنشأة النظام الطبقي في الهند، ولوحظ أنّ النظام الطبقي بدأ يظهر عندما بدأ الاختلاط مع السكان الهنود، وهذا الاختلاط يسمح بتكوين مجتمع موحد من هذه العناصر المتباينة ، أما قبل هذا الاختلاط فلم تكن هناك ضرورة لتكوين هذا النظام ، فنظام الطبقات كان وسيلة للمحافظة على سلامة العرق الآري خوفا عليه من الاندماج في الأجناس الأخرى التي بدأ يتصل بها [8]، ولقد ازداد نظام الطبقات تعقيداً منذ العصر الفيدي ، ذلك أن طبيعة النظم الاجتماعية من شأنها أن تزيد تلك النظم صلابة على مر

الزمن فضلاً عن اجتياح الهند من قبل الشعوب الأجنبية والعقائد الوافدة قد زاد من صلابة نظام الطبقات ليقوم سداً قوياً يحول دون امتزاج دم الهنود بدم غيرهم ، كما أنّ للتقسيم الطبقي تغطية وأسبابا دينيّة، ولقد أعطاه الكهنة هذا اللون الديني ، ثم جاءت قوانين (مانو) في نحو (2000 ق.م)، فأعطت ذلك التقسيم شكلاً قانونياً منظماً وثابتاً، وأعطت لكل طبقة حقوقها ووظيفتها؛ وأصبحت كل طبقة منغلقة على ذاتها لا تقبل الدخول إليها، ولا يسمح لها بالدخول في طبقة أعلى ، فمنع التزاوج والتبادل وما إلى ذلك من العلاقات ، وبهذا أصبح المجتمع الهندي، مجتمع الطبقات.

ومن هنا نستطيع أن نقول إنّ النظام الديني قد اختلط عند الهنود بمختلف الأنظمة من سياسي واجتماعي واقتصادي ، ولكي يضمن أصحاب النفوذ الديني وأصحاب النفوذ السياسي نفوذهم أسسوا نظاماً طبقياً اجتماعياً يضمن لهم السيطرة ، فكان ذلك سبباً في تبلور نظام الطبقات عند الهندوس ، الذي وزعهم الهنود إلى أربع طبقات منغلقة ينتمي الأبناء إلى طبقات آبائهم[9]. ، ولا يقتصر نظام الطبقات على شؤون الدين ، بل هو أساس اجتماعي قوي، فكل طبقة مضطرة بحكم تعاليم الشريعة الهندوسية أن تلتزم حدودها ؛ إذ لا يصح لأفرادها التعامل مع غيرهم أو احتراف مهنة أخرى أو الزواج من طبقة أخرى ، ومهما ارتقى الهندوسي واغتنى ومهما ذل وأفتقر فلا سبيل لخروجه عن طبقته و دخوله في أخرى[10] ، ولنظام الطبقات مجموعة من الضوابط ينشأ فيها الفرد ويعيش كما يُنقل ذلك الانتماء إلى الأبناء بالوراثة، ويطبع ذلك اعتراف قانوني ومشروعية سياسية، فلا احد بوسعه أن يغامر بتخطّي ذلك النظام الشرعي وانتهاكه ، وهو شديد القسوة، ويحتوي على قوانين لتبرير وتكريس وفرض العبودية على الطبقات الدنيا[11]، ولم يعرف تاريخ أمه من الأمم نظام طبقي أكثر ظلماً وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة أخرى؛ أشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً وخضعت له آلافاً من السنين، وقد أدى بالنهاية إلى انقسامات وصراعات بين افراد المجتمع[12]

المطلب الثاني ـ التقسيم الطبقي :

افترض العقل الهندي القديم، ارتهان أداء السلطة السياسية لوظائفها، بإقامتها لنظام اجتماعي، ديني، سياسي، اقتصادي، تتحدد في اطاره المراتب الاجتماعية للأفراد على وفق تصنيف يتوزع بموجبه الأفراد على أربع طبقات رئيسية في اعلى الهرم الكهنة (البراهمة) والطبقة الثانية (الكاشتريا)، والثالثة (الويشية)، والرابعة (الشودرا).

1-طبقة الكهنة (البراهمة): بعد أن دخل الآريون الهند حرصوا على تكوين طبقة دينية قوية هي طبقة (البراهما)، إذ كانت مجموعة من الطقوس والشعائر قد أرسى دعائمها رجال الدين، ومع تطور أفكار هذا المذهب الديني تطور نظام الطوائف الذي يقوم على فكرة انتماء الأفراد لجماعات مهنية محدودة يصعب عليهم الانتقال منها، ويظل الفرد طيلة حياته منتمياً إلى الطائفة التي ولد فيها، وهكذا شكل المنتمون إلى طائفة (البراهمة) وهى طائفة مميزة وفي أعلى التسلسل الهرمي الطبقي الهندوسي.

وتمثل الطبقة الأولى في السلم الاجتماعي والطبقي ومن بينهم ينتخب كاهن الملك، الذي أصبح له المركز الديني الأول، وإذا كان من يعينه الملك يصبح مرافق الملك ويذهب معه إلى الحرب ويتلو الصلوات ليضمن للملك النصر أو النجاح في الأعمال، كما انه ينظم أفعال العبادة ويرأس الحفلات الطقسية ويقبل الهبات[13]، والتضحيات التي يقدمها الناس للآلهة [14]، للتكفير عن ذنوبهم.

ويتميّز البراهمـة عن غيرهم حيـث كـانوا يتمتعون بخيرات البلاد، وهم لا يعملون وتخدمهم الطبقات الأخرى ؛ وكأنهم فوق مستوى البشر، ولما كانت طبقة البراهمة هي الطبقـة الممتازة بين الطبقات الأخرى فقد كانت لها مدارس خاصـــة تربي أبنائها تربية دينية حتى يصبحوا كهنة، وكان تعليمهم ينصب على اجتيازهم أدوار أربعة، وهي دور التلمذة ؛ إذ تبدأ حياة البرهمي كطالب من سن السادسة إلى سن الثامنة عشر يتلقى فيها علوم البراهمة، وفيها يتعلم قراءة كتب الفيدا، ويعلمه أستاذه بعض آدابهم، وفي المرحلة الثانية يكون رب الأســـرة، وفيها يهتم البرهمي بتكوين أســـرة لهُ ويختار لهُ زوجة من طبقتـه، وفي المرحلـة الثـالثـة، تبـدأ مرحلـة النســـك والعبـادة إذ يهيم فيهـا البرهمي في الغابات كما هو معهود عندهم.

ويعدّ أبناء طبقة البراهمة من المعلمين والكهنة حملة الثقافة، ومهماتهم هي الحفاظ على المعرفة والثقافة وإرضاء الآلهة والحفاظ على العدالة والأخلاق، وهم الذين خلقهم الإله(براهما)من فمه ، ومنهم الكاهن والقاضي؛ وهم ملجأ في جميع حالات الزواج والوفاة ولأنهم المعلمون والقراء وحفّاظ النصوص المقدسة لذلك احتكروا العلم والمعرفة، فقد صاروا القائمين على صيانة التقاليد، وأدخلوا على هذه التقاليد ما شاءوا من تعديلات، وتولوا تربية النشء، وكتبوا الأدب، وأشرفوا على نشر المكتوب منه، واختصوا بكتب الفيدا، التي هبط بها الوحي، وصاروا وحدهم الشراح والمشرعين.

وقد استطاعت هذه الجماعة الكهنوتية التي سميت منذ القدم بالبراهمة فرض سيطرتها ونفوذها فصعد نجمها منذ ذلك الحين وأصبحت في قمة الطبقات الاجتماعية في الهند، وتتمتّع هذه الطبقة بامتيازات لا يسمح لبقية الطبقات بأدائها، ومن هذه الامتيازات:

أ- تقريب القربان والتقدمات التي لا تقبل من الناس إلا عن طريقهم وهي جزء مهم من الطقوس الخاصة بهم، وهذهِ القرابين والتقدمات تشمل الماشية والبخور والكافور والزهور.

ب - على البرهمي أن لا يتغير بتعظيم الناس، وتكريمهم إياه، بل ينظر إلى ذلك، نظرة عدم الرضا، وأن يَعد توهينهم واحتقارهم إياه، كماء الحياة، لأن المحتقَر ينام ويستيقظ، ويروح ويغدو وهو منشرح الصدر، خالي البال والمحتَقِر يفنى ويندثر.

جـ يعيش البراهمة على ما يقدم لهم من القرابين والهدايا، وان كان يؤذن لهم في حالة الحاجة بأعمال التجارة أو شغل الوظائف الحكومية.

د - إذا كان للبرهمي ازواج من جميع الطوائف فيجعل ميراثه سبع حصص ونصف، فتأخذ البرهمية ثلاث حصص، وتأخذ المرأة الكشترية حصتين، وتأخذ المرأة الويشية حصة ونصف حصة، وللمرأة الشودرية حصة واحدة.

2- **طبقة الكاشتريا:** وهم الطبقة الثانية في الديانة الهندوسية والتي جاءت من ذراع (براهما) [15]، وينتمي افراد هذهِ الطبقة إلى الجنس الآري ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جداً [16] ، وتتكوّن هذه الطبقة من المحاربين الأشراف الّذين يسهمون في المعارك ويكوّنون عادة طبقة الملاكين في البلاد ومنها يُنصَّب الملك وكبار مسؤولي الدولة وشملت واجباتهم الجوانب الإدارية وحماية المجتمع من الأعداء وأكدت النصوص الهندوسية على احترام الملك، ويجب عم الاستخفاف بهِ وإن كان طفلاً.

لقد ذكرت كتب الفيدا وظائف عدة لهذهِ الطبقة فمنها ينصب الملك ؛ إذ أن الّذين تغذت عقولهم بتعاليم الفيدا هم الّذين يصلحوا أن يكونوا قواداً أو ملوكاً أو قضاة أو حكّاماً للناس، ولا يجوز للملك أن يأخذ أموال البرهمي الذي يموت بلا وارث، بينما يجوز لهُ أن يأخذ أموال الطوائف الأخرى في حالة عدم الوراث.

إنّ طبقة الكاشتريا من نسل الآريين الغزاة، تكاثرت وفق مطامع الملوك، وتوجيهات البراهمة، وقد سمح لهم بقراءة الكتب المقدسة وتعلمها، لكن أن يجرؤ احد أبنائها على تعليم هذه الكتب فقد وجبت محاكمته ليقطع لسانه حتى لا ينازع منازع حق البراهمة المقدس.

ويقوم البراهمة بمهمة الدفاع عن الوطن وحمل السلاح، ويبقى الواحد منهم جندياً طيلة حياته [17]، وأفضل الأعمال للكشتري هي الجندية ، والكشتري يبقى مستعداً للقتال حتى في وقت السلم استعداداً لأي حرب قد تحصل.

3ـ الطبقة الويشية : وهي الطبقة الثالثة في المجتمع الهندوسي، و تذكر المصادر أنهم خلقوا من فخذ الإله(براهما) وهم التجار ورجال الأعمال وأصحاب المشاريع ومربي المواشي ويقومون بسائر الأعمال المتعلقة بالعقود والأموال ولها أهمية في الحياة الاقتصادية، لأنهم المختصون بفلاحة الأرض وزراعتها والتجارة والبيع والشراء ويقع على عاتقها توفير الأمن الغذائي وتأمين الرخاء والاستقرار المعيشي، أي أن الشأن الاقتصادي بيد هذهِ الطبقة[18]، لذلك تمثل العمود الفقري للاقتصاد الهندوسي ، ويهتم أفراد هذهِ الطبقة بمهنتهم، إذ اعتنوا بتربية الماشية على الدوام، وعليهم معرفة قوانين التجارة، وما تحفظ به السلع وكل ما يمت إلى البيع والشراء بصلة[19].

4ـ طبقة الشودرا: وهي الطبقة الرابعة في المجتمع الهندوسي، ويشملون معظم السكان الأصليين وهم الّذين حاربوا الآريين طوال ألف سنة تقريباً، وفي النهاية استسلموا لهم ووقعوا أسارى في أيديهم، وجعلوهم خدماً لهم، ووضعوا لهم وظائف وأعمالاً دينية في شريعة (مانو). وحسب أسطورة الخلق، فإن طبقة الشودرا قد جاءت من رجل الإله(براهما) مما أثر على وضعهم الاجتماعي، فأصبحوا أذلاء يخدمون الطبقات السابقة ويطيعونها، وتفرض عقوبة على من يحاول منهم الخروج من طبقته، وإذا قاوم أو اعتدى على من هو أعلى منه طبقة يُصب عليه الزيت الحار أو يدخل خنجر في فمه وأوجبت الشرائع الهندوسية على طائفة الشودرا(العبيد) أن يعيشوا في خارج القرى، وأن يستعملوا الأواني من الطين، ويملكوا الحمار والكلاب فقط، ويلبسوا أكفان الموتى، وحليتهم من الحديد، ولا يتجولوا من مكان سكنهم إلى مكان آخر ويكون تعاملهم مع طوائفهم فقط، ويحظر عليهم التجوال في الليل في القرى والمدن[1]كما يحرم أيضاً على أفراد طبقة الشودرا تلاوة الكتب المقدسة والإنصات إليها، فإن أنصت رجل من هذهِ الطبقة إلى تلاوة الكتب المقدسة امتلأت أذناه بالرصاص المصهور، وأن تلاها هو انشق لسانهُ، ولو حفظ شيئاً منها قطع جسدهُ نصفين[20]، و يجب على الشودري أن يمتثل امتثالاً مطلقاً لأوامر البراهمة، سادة البلاد والعارفين بالكتب المقدسة والمشتهرين بالفضائل، فترجى لهُ السعادة بعد موته وأن خدمة الشودري للبراهمة هي أفضل عمل يحمد عليه، ولا يجوز لهُ أن يجمع ثروة أيا كانت ولو كان ذلك من القادرين، لأنه إذا

جمع المال سوف ينافس البراهمة وإذا لم يجد الشودري من خدمة البراهمة قوت حياته، يجوز لهُ خدمة الكشتري والويش، لكن الأفضل أن يصبر على خدمة البراهمة، لأنه من أفضـــل الأعمال[21] ، وإذا قام أحد أفراد الشـــودرا بالاعتداء على زوجة برهمي، يقوم البراهمة بمصـــادرة أملاكه، أما إذا قتل شـــودري زميلاً لـهُ، كان عليه أن يكفر عن جريمته بعشر بقرات يهبها للبراهمة، أما إذا قتل احد من الفيشية فكفارته للبراهمة مائة بقرة، إذا قتل أحداً من الكاشترية ارتفعت الكفارة إلى ألف بقرة يعطيها للبراهمة، أما إذا قتل برهمياً فلا بد من قتلهُ، لان العقاب بالقتل لا يكون إلا لقتل برهمي فضـــلاً عن الطبقات السالفة الذكر، وهناك طبقة أخرى لا تدخل ضمن التقسيم الطبقي الهندوسي تســـمى طبقة(الباريان)أي المنبوذين وهم طبقة الكناســـين وحمالي القاذورات وأرباب المهن المبتذلة، وتعد أحط الطبقات مقاماً وتتألف من الهنود الّذين لم يخضـــعوا للآريين ومن القبائل الأصلية التي لم ترتد عن ديانتها وأسرى الحرب ورجال تحولوا إلى عبيد على سبيل العقاب وهم في مستوى متدني جداّ وحياتهم بدائية، ويجدون صـــعوبة في الحصـــول على طعامهم مما يضـــطر أكثرهم إلى أكل الميتة، ولا يســـمح لهم باعتناق الهندوســـية ، وقد ارتبط ظهور هذهِ الطبقة بقانون التناســـخ وقانون الجزاء(الكارما)، وحسب قانون التناسخ فإن الذي تكون أعماله سيئة في الحياة، سوف يكون جزاؤه بأن يولد في طبقة منبوذة ومحتقرة [22] ، ويعيش المنبوذون خارج حدود القرى ولا يجوز لهم سحب الماء من بئر تستخدمها الطبقات الأعلى، والتعليم ممنوع عليهم ويحرم عليهم أيضـاً قراءة النصـوص الدينية المقدسـة وليس أمامهم سـوى قبول نصـيبهم في الحياة، وهذا هو طريق الخلاص الوحيد أمامهم.

إنّ هذا التقسيم للمجتمع الهندوسي يفرض على كل طبقة قيوداً في التعامل مع الطبقات الأخرى، فمثلاً في مسألة الزواج لا يجوز لرجل أيتزوج امرأة من طبقة أعلى من طبقته لعدم التكافؤ ولأن أولاده منها سيهبطون إلى مستواه ولكن يجوز للرجل أن يتزوج امرأة من طبقة اقل من طبقتهِ على أن لا تكون من الطبقة الرابعة (الشودرا) التي لا تسمح بأن يتزوج منها احد من أفراد الطبقات الثلاثة. ويتبع نظام الطبقات أن تلاحظ أسماء الأطفال من كل طبقة فيختار الاسم من الكلمات الدالة على البهجة والسرور إذا كان برهمياً، وعلى الحول والقوة إذا كان كشترياً، وعلى الغنى والثروة إذا كان ويشياً، وعلى الذل والمهانه إذا كان (شودرياً) ولا يكمن للهندوسي في أي حال من الأحوال أن تتغير طبقتهُ

ويرتقي إلى طبقات مهما بلغ من الصلاح، وبلغ أقصى الحدود وأصبح غاية في الشجاعة والذكاء.

المبحث الثاني ـ أثر نظام الطبقات في ظهور المذاهب الدينيّة:

إنّ نظام الطبقات، الذي فرضته الديانة الهندوسية، والذي خصَّ طبقة (الكهنة) البراهمة والكاشتريا بكثير من الامتيازات ميّزتهم عن باقي الطبقات والتي كانت السبب المباشر لظهور المذاهب الهندية، وفي ظل هذا النظام استبد البراهمة وظهر ظلمهم، وضج الناس من استبدادهم، ولاسيما الطبقات الدنيا التي أرهقتهم الضرائب والعمل في خدمة البراهمة؛ فأخذوا يبحثون عمن يخلصهم من ظلم البراهمة؛ لهذه الأسباب وغيرهما ظهرت حركات إصلاحية ومذاهب دينية، أشهرها المذهب، البوذي والجيني، والسيخي:

1- المذهب البـــوذي: أحد مذاهب الهند الكبرى، ويقوم على التجرد والزهد تخلصاً من الشهوات والآلام ، لذلك عَدّها بعض الباحثين فلسفة في الحياة أقرب منها إلى الدين. ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد على يد (سيدهارتا) ،وقد كان شاباً مترفاً من أبناء الملوك، ولكن لفت نظره ظاهرة الألم في الحياة كالمرض والعجز والموت وبدأ يفكر في كيفية التخلص من هذهِ الآلام؛ ولهذا ترك حياة الترف وهام على وجهه في الغابات مترهباً متقشفاً حتى اهتدى إلى نظريته في التخلص من الألم وذلك بسلوك المثمن(ثمان شعب) وهي: سلامة الرأي، وسلامة النية، وسلامة القول، وسلامة الفعل،)؛وبهذا يتمكن الإنسان من التخلص من الشهوات والرغبات، وينجوا من تكرار المولد ويصل إلى النرفانا، وقد أطلق على(سدهارتا)، لقب(بوذا)إي العارف المتنور الذي اهتدى لطريقة الخلاص من تكرار المولد، و لم يهتمّ بوذا بالجانب العبادي دينياً، ولم يطلب من أتباعه أية طقوس أو شعائر، ولا أسس في حياته لمعابد، وخلَّف بوذا فلسفة أخلاقية ثار من خلالها على الكثير من مفاهيم الهندوس خاصة نظام الطبقات، الزهد والتقشّف عماد السلوك البوذي، وهجر المطالب الدنيوية وآمن بوذا بالعقائد الهندوسية(الكارما والتناسخ والنرفانا) وطرح بوذا أربع حقائق تساعد الإنسان الذي ينشد الفضيلة على إخماد الشهوات، الحقيقة حزن ، وعدم الوصول إلى المحبوب حزن، والحقيقة الثانية، في أسباب وجود الحزن، والحقيقة الثالثة، في القضاء على الآلام والأحزان، والحقيقة الرابعة، الأعمال التي تساعد على القضاء على الآلام والأحزان، رفض بوذا في حياته الآلهة الهندوسية، وهذهِ من الأسباب التي أدت إلى انكماش البوذية في الهند بسبب عدم اعترافها بالآلهة، لذا لم تصمد طويلاً أمام الهندوسية مما أدى إلى انتشارها خارج الهند وبالخصوص في الصين واليابان

2- المذهب الجيني : هو حركة عقلية عملت على التحرر من سلطان الفيدات، وسلطة البراهمة وكذلك تعقد الطقوس، والممارسات الشعائرية وكثرة الآلهة في الديانة الهندوسية؛ والصراع المستمر بين طبقة البراهمة والكاشتريا (الملوك)حول النفوذ والصلاحيات، وهذا الصراع بين هاتين الطبقتين، هو السبب المباشر الذي دفع (مهافيرا)؛ الذي ينتمي لطبقة الكاشتريا (الملوك) إلى تأسيس الديانة الجينية في حدود (550-477ق.م) وهي مطبوعة بطابع الذهن الهندوسي العام وبنية على الخوف من تكرار المولد، والجينية، طائفتان، الطائفة الاولى، تسمى(ديجامبرا) أي أصحاب الزي السماوي العراة(الكهنة)؛ والطائفة الثانية تسمى (سويتامبرا) أي أصحاب الزي الأبيض (طبقة العامة).

تميّز أتباع هذه الديانة بتقديس ذوات الأرواح، حتى أن الراهب يمسك بمكنسة ينظف بها طرقه ومجالسه، وبعضهم يضع غشاء على وجهه حتى لا يستنشق حشرة فيقتلها بغير علم، وأتباع الجينيّة لا يعملون في الزراعة؛ حتّى لا يقتلون دودة ولا حشرة، ولهذا كان تركيزهم على التجارة، ممّا جعلهم من أثرياء الهند ومن أصحاب النّفوذ ، ولم تعترف الجينية بالآلهة الهندوسية، ومن عقائدها الكارما والتناسخ والنجاة، فهي تلتقي مع المذهب البوذي في هذه الأمور، ولكنها تبتعد من خلال إيمانها بثلاثة أشياء تسمّى(اليواقيت الثلاثة)، وهي الاعتقاد الصحيح والعلم الصحيح، والخلق الصحيح.

3-المذهب السيخي: آخر المذاهب التي ولدت على أرض الهند، ومؤسسه هو(ناناك) الذي ولد عام (1469 وتوفي عام 1539م)، ولد هندوسياً لأسرة تتبع طائفة هندوسية صغيرة، لكنه تأثر بالدين الإسلامي، وكان يصوم ويصلي ويختلي بنفسه كثيراً وعاش مأساة الحروب المتكررة بين الهندوس والمسلمين في موطنه البنجاب التي استمرت لقرون، وعندما درس الإسلام والهندوسية بعمق وجد نقاط تشابه كبيرة بينهما. بعد ذلك سافر إلى مكة والمدينة وتجول في العالم الإسلامي، ثم ظهر بمذهب جديد حاول التوفيق بين الإسلام والهندوسية، فدعا إلى خالق واحد وأنكر آلهة الهندوس المتعددة وحارب نظام الطبقات ألا أنهُ احتفظ ببعض التعاليم الهندوسية كالتناسخ وحرق الميت والحلول. حاولت هذه المذاهب الوقوف بوجه نظام الطبقات وأصبحت مذاهب مستقلة، ألغت ووقفت بوجه النفوذ الواسع لطبقة البراهمة؛ ومع ذلك لم تستطع التخلص من النسق العام للهندوسية.

إنّ هـذا النظام الطبقي الذي ربطه الهندوس بأصل النشأة[23]، والذي كان احد الأسباب المباشرة في ظهور المذاهب الدينية الهندية، أدى إلى انقسام حاد في المجتمع ولا شك أنه سد الطريق أمام الكفاءات والقدرات ومنع العدالة بين الناس، وأدى إلى غياب مبدأ المساواة ويعيق التنمية الاقتصادية، ومن ثم فهو نظام ظالم لا يقبلهُ عقل أو منطق؛ لذلك ثارت عليه البوذية والجينية والسيخية وأنكرته، ، إذ من غير المعقول أن نحكم على مستقبل إنسان وموقعه منذ الولادة، وقد جرت محاولات عدة تزعمها المهاتما (غاندي) للتخفيف من حدة هذهِ الطبقات أو أزالتها، ولإنصاف طبقة المنبوذين بوجه خاص ، ولكن هذهِ المحاولات لم تحقق النجاح المطلوب.

أمّا الإسلام فليس به طبقيّة إلاّ عند الجهلة من المسلمين؛ انطلاقاً من الآية الكريمة، يقول - سبحانه وتعالى- : (**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ**) ، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ خُطْبَةَ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ "، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: " فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ** " [24]، فالمسألة هنا مبتوت فيها وهي :أن التقوى مقياس العمل ومقياس الطبقية ، فكلما كان الإنسان أكثر تقى كان أرفع من غيره ، أما الطبقية بالنسبة للون أو الجلد أو الجاه أو المال أو الحسب أو النسب أو غير ذلك فهي ليست موجودة في الإســـلام، لكن عندما دخل التحريف لبعض قضايا الإسلام وخاصة فيما يرتبط بالأنساب وغيرها، وجدت هذه الطبقية، فهذا منزلته عالية وهذا أقل، هذه ليست من الإسلام في شيء، إنّما ظهرت عندما انتشر الجهل، فإذا قل الجهل زالت هذه القضايا.

الخاتمـــــــــة:

إنّ أهمّ ما يُميّز الديانة الهندوسية هو الاعتقاد بنظام الطبقات، والذي يقوم على أساس تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات، تختلف هذه الطبقات فيما بينها في الواجبات التي تقوم بها كل طبقة وفي الحقوق والامتيازات التي تتمتع بها كل طبقة.

1ـ لنظام الطبقات جذور دينية وتاريخية، فجذوره الدينية تتمثل بربطه بالأساطير الهندية من خلال قصص الخلق ودور الإله(براهما) في عملية الخلق، وذلك لإضفاء صبغة

دينية عليه، أما الحوادث التاريخية فتتمثل بدخول الآريين الهند في حدود(1500ق.م)، إذ بدأ هذا النظام بالتجذر منذ ذلك العهد.

2- قسم النظام الطبقي المجتمع الهندي إلى طبقات، تختلف كل منها من حيث الوظائف والامتيازات، إذ خُصَّ طبقة البراهمة بالشؤون الدينية وطبقة الكاشتريا بالشؤون السياسية والويشية بالشؤون الاقتصادية والشودرا بالخدمة.

3- لم يدخل المنبوذون ضمن التقسيم الطبقي، وهذهِ من المآخذ التي تُأخذ على النظام الطبقي، إذ أنه ظلم طبقة اجتماعية كبيرة ولم يدخلها ضمن تقسيمه.

4- لقد خصَّ نظام الطبقات طبقة البراهمة(الكنهة) والكاشتريا(الملوك) بكثير من الامتيازات وحرم الطبقات الأخرى منها، مما أدى إلى حدوث فوارق طبقية وغياب العدالة الاجتماعية، دفعت الكثيرين إلى التفكير بالخروج من الهندوسية وتأسيس مذاهب دينية منها المذهب البوذي والمذهب الجيني والمذهب السيخي.

5- ظهرت المذاهب الإصلاحية الأخيرة في الهند والمتمثلة بالمذهب البوذي والجيني والسيخـــي كرد فعل على التفاوت الطبقي الهندوسي ومحاولة للتخفيف من هذا التفاوت أو أزالته ولكن جذوره الدينية والتاريخية وتغلغله في المجتمع الهندي حال دون ذلك.

الهوامـــــــــــــش :

-القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

1- القاضي ، تميم عبد العزيز، الأصولية الهندوسية، ص9. [بتصرّف].راجع: https://ketabpedia.com/
2- الرّازي، محمّد بن أبي بكر، مختار الصّحاح، تحقيق مجموعة من الباحثين، ط1، بيروت، مكتبة لبنان، 1986، ص163
3- فيريول، جيل ، معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة أنسام محمّد لسعد، ط1، بيروت، دار ومكتبة الهلال، د.ت، ص49. 250
4- كولـــر، جون، الفكر الشرقي القديم، ترجمة : كامل يوسف حسين، ط1، الكويت، ضمن سلسلة عالم المعرفة، 1995، ص 74.
5 - البيروني، أبو الرّيحان، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، تحقيق ادوارد سخاو، الهند، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، 1905، ص78. [بتصرّف].
6- المقدسي، صبر: الهندوسية: المنشأ والجذور والعقائد الروحية، مجلة الحوار المتمدن، العدد4081، سنة 2013، ص11-12.
7- هامرتن، السير جون، تأريخ العالم، ترجمة قسم الترجمة بوزارة التربية والتعليم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص436.
8- شلبي، أحمد، أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط.11، 1984 ، ص54
9- الديبو، إراهيم أحمد، التفاضل بين البشر في الجنس والعرق والوراثة، بحث منشور في مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية ، مج26، العدد2010،2،ص508.
10- السعيد، أمينة، مشاهدات في الهند، ط1،دار المعارف للطباعة والنشر، 1941م، ص137.
11-Duleep.H.Orcutt،Indias،Caste،system،first editition،Germany،2012 ،p.6 .
12-Harris.A.The Development of Civilizaition and Religion in india and its Influece on the world society،p.27.
13- ايمار، أندريه، خ، اوبوايه، جانين، تاريخ الحضارات العام (الشرق واليونان القديمة، عويدات للنشر، بيروت، 1998م، ص561
14-Muller.F.Max.TheUpanishads, part2, first editition, oxford, 1884, p.32
15-Kulke،H،R،Dietmar،A History of India ،Third Edition،Routledg London،2002, p.39.
16- البيروني، محمد بن أحمد، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مزدولة، دائرة المعارف الهندية ، (الهند،1950)، ص76
17 - زيعور، علي، الفلسفة في الهند، ط1، مؤسسة عز الدين، بيروت،1993، ص123
18- Klostermaier.K.Klaus،A Survey of Hinduism،Third Edition،p.289.
19 - شلبي، أحمد، أديان الهند الكبرى، ص58
20 - ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، د.ت، مج1،ج3، ص166
21- مظهر، سليمان، قصّة الديانات، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1955، ص83
22- Schomp .v.virginia،Ancient india ،Marshall Caven, 2010, p.24.
23- السحمراني، أسعد، ترجمان الاديان، ط1،دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، 2009، ص72
24- سورة الحُجرات، الآية 13.
25- شعب الإيمان البيهقي ، 7/ 132 ، رقم الحديث رقم 4774.